كلية الآداب
قسم التاريخ
شعبة التاريخ الأوروبى الوسيط

الطب وطرق التداوى فى مصر البيزنطية
(٢٨٤ – ٦٤٢م)

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير فى التاريخ الأوروبى الوسيط

مقدمة من الباحث
أسامة فايز استقلال أحمد
المعيد بالقسم

إشراف

الأستاذ الدكتور
إسحق تاوضروس عبيد
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
بكلية الآداب جامعة عين شمس

الدكتور
عبد العزيز رمضان
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
المساعد بكلية الآداب جامعة عين شمس

القاهرة
٢٠١٦

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة	أ — ز
الفصل الأول : التعليم الطبى	١ — ١٤٠
المدخل	١
طالب الطب	٨
البرنامج الدراسى	٢٨
أستاذ الطب	٧٠
المدرسة الطبية	٩٨
الخلاصة	١٣٥
الفصل الثانى : الأطباء المتعلمون	١٤١ — ٢١٦
المدخل	١٤١
شرائح الأطباء المتعلمين	١٤٢
علاقة الأطباء المتعلمين بالدولة والمجتمع	١٨٠
الخلاصة	٢١٢
الفصل الثالث : المشكلات الصحية	٢١٧ — ٢٦٨
المدخل	٢١٧
[١] أمراض العين	٢٢٠
[٢] الحميات	٢٣٣
[٣] الأمراض الصدرية	٢٣٧
[٤] أمراض العظام	٢٣٨
[٥] أمراض النساء والولادة	٢٤١

[٦] أمراض مجهولة	٢٤٥
[٧] الإصابات والجروح	٢٥١
[٨] الأوبئة والطواعين	٢٥٨
الخلاصة	٢٦٦
الفصل الرابع : طرق التداوى	٢٦٩ — ٣٩٠
المدخل	٢٦٩
أولاً : العلاج الطبى والجراحى	٢٧٠
ثانياً : الطب الشعبى	٣١٥
ثالثاً : السحر والشعوذة	٣٤٠
رابعاً : العلاج المقدس	٣٦٣
الخلاصة	٣٨٩
الخاتمة	٣٩١ — ٣٩٤
قائمة المصادر والمراجع	٣٩٥ — ٤٢٨

مقدمة

حقاً صدق الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر، ت.٢٥٥هـ/ ٨٦٨م) عندما قال فى مطلع «رسالة الحنين إلى الأوطان» ما نصه : " *إن لكلِ شيء من العلم ونوعٍ من الحكمة وصنفٍ من الأدب – سبباً يدعو إلى تأليف ما كان فيه مشتَّتاً، ومعنىً يحدُو على جمع ما كان متفرقاً؛ ومتى أغفل حملةُ الأدب وأهلُ المعرفة تمييزَ الأخبار واستنباطَ الآثار، وضَمَّ كلِّ جوهرٍ نفيسٍ إلى شكله، وتأليفَ كلِّ نادرٍ من الحكمة إلى مثله، – بطلت الحكمة وضاع العلم – وأُميت الأدب – ودَرس مستوُر كل نادر . ولولا تقييدُ العلماء خواطَرهم على الدهر، ونقْرهم آثار الأوائل في الصخر، – لبطلَ أوّلُ العلم وضاع آخره؛ ولذلك قيل : « لا يزال الناسُ بخير ما بقيَ الأوّلُ يتعلم منه الآخر* » " .

منذ حوالى خمسة عشر عاماً، التحق الباحث بكلية الطب البيطرى جامعة القاهرة، ونظراً لظروف خاصة لم يتمكن الباحث من استكمال دراسته بها، بعدما أمضى فيها عدة سنوات، اجتاز بنجاح خلالها عدداً كبيراً من المقررات الدراسية المتعلقة بعلوم التشريح ووظائف الأعضاء والخلايا والأنسجة والنبات والحيوان، فضلاً عن الكيمياء والفيزياء والأحياء، وغيرها من العلوم الطبية والتطبيقية. بعدها تحول الباحث إلى دراسة التاريخ بكلية الآداب جامعة عين شمس التى أتم دراسته بها، ليتخصص بعد ذلك فى «تاريخ العصور الوسطى الأوروبية» فى مرحلة الدراسات العليا. وقتها راودت الباحث فكرة اختيار موضوع لدرجة الماجستير يتسم بالربط بين ما كان قد حصَّله من معارف طبية فى السنوات التى أمضاها بكلية الطب البيطرى، وما حصَّله بعدها من معرفة متخصصة فى علم التاريخ بعامة، وتاريخ العصور الوسطى الأوروبية بخاصة.

وبرؤية ثاقبة من أساتذة تاريخ العصور الوسطى بالقسم، تم توجيه الباحث لاختيار تاريخ مصر فى العصر البيزنطى (٢٨٤ – ٦٤٢م) مجالاً للبحث، باعتبارها نقطة تخصص دقيقة من الناحية الجغرافية والزمنية، وهنا على الفور وقع اختيار الباحث على موضوع الدراسة (الطب وطرق التداوى فى مصر البيزنطية ٢٨٤ – ٦٤٢م)، وذلك لما يتسم به هذا الموضوع من مزج بين تخصصين يتمتع الباحث فيهما بقدر من الدراية يؤهله للمضى قدماً في بحثه. ولعل سعادة

الباحث كانت مضاعفة، لأنه سيلقى بصيصاً من الضوء على فترة من تاريخ بلدنا الحبيب لم تحظ بعد بالقدر الكاف من اهتمام الباحثين المتخصصين فى التاريخ الوسيط .

وعندما بدأ الباحث العمل فى هذا الموضوع، كانت الصعوبة الأولى التى واجهته هى خلو المكتبة العربية من أى دراسة متخصصة فى تاريخ الطب فى تلك الحقبة من تاريخ مصر، بل حتى الدراسات الأجنبية وإن كانت قد تنوعت لتغطية العديد من موضوعات تاريخ مصر فى العصر البيزنطى، فإنه لم تنفرد أى منها برصد متخصص لحال الطب فى مصر البيزنطية. ولقد نجح الباحث فى التغلب على هذه الصعوبة بجمع مادته العلمية المتصلة بالموضوع على مدار ما يقرب من أربعة أعوام متواصلة، من كل ما وجد فيه ضالته من وثائق منتمية إلى الفترة محل الدراسة وحواليها، وهى الوثائق التى تنوعت بين أوراق البردى وقطع الأوستراكا والنقوش، والتى تنوعت أيضاً فى تواريخها وأماكنها، إلى الحد الذى سمح للباحث ببناء الهيكل العظمى للدراسة من مختلف النواحى، وهو الهيكل الذى كساه الباحث لحماً ودماً بما تيسر له الاطّلاع عليه من نتائج البعثات الأثرية، فضلاً عن العديد من المصادر الأدبية، والكتابات الهجيوجرافية، والمراجع الأجنبية والعربية. وذلك بالإضافة إلى الزيارات العلمية التى قام بها الباحث لعدد لا بأس به من المواقع الأثرية، والمتاحف والمكتبات المحلية والدولية .

هذا فى حين كانت العقبة الثانية التى واجهت الباحث فى إعداد هذه الدراسة، هى صعوبة فصل الفترة محل الدراسة عن الفترات السابقة عليها، ذلك أن كثيراً من ملامح العصر البيزنطى قد تشكلت جذورها فى مصر على مدار التاريخ الفرعونى والبطلمى والرومانى. ولقد تغلب الباحث على هذه الصعوبة قدر الإمكان بإفراد المعلومات المتصلة بالفترة محل الدراسة فى متن البحث، فى حين كانت الحواشى مجالاً فسيحاً لإفراد المعلومات المتصلة بالفترات السالفة على فترة الدراسة، باستثناء المواضع التى تحتم فيها طرح جذور الفكرة محل النقاش فى متن البحث، وذلك بالاستناد إلى مادة وثائقية أو أدبية من فترة سابقة على فترة الدراسة، لضرورة اقتضاها السياق المطروح .

أما آخر الصعوبات التى واجهت الباحث، فتكمن فى أن أغلب المادة العلمية التى اعتمد عليها الباحث فى نسج الخيوط الرئيسية لهذه الدراسة، قد أتت بلغات غير العربية – لغة الباحث الأم –، حيث تنوعت بين لغات قديمة كاليونانية والقبطية واللاتينية، ولغات حديثة كالإنجليزية

والفرنسية والألمانية والإيطالية والأسبانية، وهنا لم يجد الباحث بداً من تنمية معارفه اللغوية فى كافة هذه اللغات بالدراسة والجهد والمثابرة، الأمر الذى حمَّل الباحث عبئاً يضاف إلى الأعباء الأخرى التى تطلبها العمل فى هذه الدراسة .

ومن أجل معالجة الإشكاليات التى تتضمنها الدراسة، قام الباحث بتقسيم الدراسة إلى أربعة فصول، تقع بين مقدمة وخاتمة، وتذيلها قائمة تحوى كافة المصادر والمراجع التى اعتمدت عليها الدراسة. على أن الباحث حرص على أن يبدأ كل فصل بمدخل مستقل يمهد السبيل للإشكاليات التى يتناولها الفصل، كما حرص الباحث كذلك على أن يختتم كل فصل بخلاصة تتضمن أهم النتائج التى بلغها الفصل. ولقد وضع الباحث الفصل الأول من الدراسة تحت عنوان " التعليم الطبى "، ليتناول فيه العناصر الأربعة الرئيسية لقيام أى عملية تعليمية فى كل مكان وزمان؛ ونعنى بحديثنا «الطالب»، و«البرنامج الدراسى»، و«الأستاذ»، و«المدرسة». وكان الهدف من دراسة هذه العناصر الأربعة هو الوقوف على حال التعليم الطبى فى مصر البيزنطية، حيث حرصنا أولاً على عرض مسيرة طالب الطب منذ تعليمه الإبتدائى وصولاً إلى تعليمه العالى، باختياره دراسة الطب فى جامعة الإسكندرية ذات الشهرة العالمية والمكانة المرموقة إبان الفترة محل الدراسة. ثم تطرقنا بعد ذلك إلى التعرف على البرنامج الدراسى الخاص بدراسة الطب فى جامعة الإسكندرية، فقمنا بعرض كافة تفاصيل هذا البرنامج من حيث مستويات الدراسة والمقررات النظرية وجوانب التطبيقات العملية المتاحة. بعدها انتقلنا إلى الحديث عن أستاذ الطب بالمدرسة، عارضين لأبرز أعلام المدرسة من الأساتذة، وكذلك ما طرأ على أحوال المدرسين من تغيرات كان أبرزها تحولهم من الوثنية إلى المسيحية، فضلاً عن مزجهم بين الفلسفة والطب، مما كان له انعكاسات خطيرة على تطور علم الطب ذاته. وأخيراً تناولنا تاريخ مدرسة الإسكندرية الطبية منذ نشأتها فى العصر البطلمى حتى زوالها وانتقالها إلى خارج مصر بعد الفتح العربى الإسلامى .

أما الفصل الثانى فقد جاء تحت عنوان " الأطباء المتعلمون "، وكان الهدف منه هو التعرف على أهم ملامح الحياة المهنية للأطباء المتعلمين فى مصر، وذلك فى ضوء تقسيمهم فى البداية إلى عدة شرائح، وعرض الحقائق المتعلقة بدور كل شريحة فى خدمة المجتمع، لنفصّل بعدها فى علاقتهم بالدولة، متمثلة فى الإشراف الذى خضعوا له والنقابات التى انضموا

إليها، فضلاً عن الإمتيازات التى خصتهم بها القوانين، ومدى تمتعهم بتلك الإمتيازات على أرض الواقع. ثم انتقلنا بعدها للتعرف على الملمح الأهم فى علاقتهم بأفراد المجتمع؛ والمتمثل فى نظرة المجتمع حيالهم ومدى تقبله لهم، فى ظل وجود فئات أخرى قامت بتطبيب المرضى انطلاقاً من معطيات غير علمية .

وجاء الفصل الثالث تحت عنوان " المشكلات الصحية "، لنتعرف من خلاله على بضعة نماذج لأهم المشكلات الصحية التى عانى منها الناس فى مصر إبان الفترة محل الدراسة، والتى شهد بمعاناتهم منها عدد كبير من الشواهد الوثائقية التى قمنا بعرضها داخل الفصل، مدعمين هذه الشواهد ببعض النتائج التى توصلت إليها البعثات الأثرية التى استكشفت فى العديد من المواقع المصرية، ولقد تسنى لنا فى ضوء هذه الشواهد الوثائقية والتقارير الأثرية تكوين رصد حقيقى لمعاناة الناس من أمراض العين، والحميات، والأمراض الصدرية، وأمراض العظام، وأمراض النساء والولادة، وبعض الأمراض التى كانت مجهولة بالنسبة لمعاصريها، فضلاً عن الإصابات والجروح، وأخيراً الأوبئة والطواعين .

أما الفصل الرابع والأخير فيحمل عنوان " طرق التداوى "، وقد أراد الباحث من خلاله عرض كافة سبل التداوى التى انتهجها الناس فى مصر البيزنطية لمداواة أسقامهم، وهى السبل التى تنوعت بين اللجوء إلى العلاج الطبى والجراحى الذى تعتمد أولى مراحله على استعمال المرضى للأدوية والوصفات الطبية التى أعطاها الأطباء المتعلمون بأنفسهم، أو على الأقل أرشدوا مرضاهم إلى استعمالها. فى حين تمثلت ثانى مراحل هذا النوع من العلاج فى اللجوء إلى الجراحة، باستعمال الأدوات الطبية والآلات الجراحية التى حرصنا على عرض صور لنماذج متعددة منها داخل الفصل. أما الطريقة الثانية من طرق التداوى فقد تمثلت فيما يعرف اصطلاحاً بـ «الطب الشعبى» الذى يكون الاعتماد فيه دائماً على الخبرة العملية دون المعرفة العلمية، عملاً بالمقولة الشهيرة " سل مجرباً ولا تسل طبيباً "، وهى المقولة التى فُعِّلت بقوة فى الفترة محل الدراسة، فى إطار عدة صور لممارسات الطب الشعبى فى مصر البيزنطية، ولعل أبرزها الاعتماد على الأغذية النافعة فى مداواة المرض كبديل عن استخدام الأدوية والعقاقير، وكذا اللجوء إلى القابلات فى مراحل الحمل والولادة بدلاً من استدعاء الطبيب الخبير بأمراض النساء، وغير ذلك من ممارسات الطب الشعبى التى عددناها داخل الفصل. أما ثالث طريقة من طرق

التداوى التى عرفها المجتمع المصرى فى الفترة محل الدراسة، فقد تمثلت فى الاعتماد على السحر والشعوذة فى مداواة الأمراض، من خلال استعمال التمائم والرقى والتعاويذ، وغيرها من الأدوات السحرية التى استخدمها بعض الناس إيماناً منهم بأنها تعمل على طرد الأرواح الشريرة المسببة للعلل والابتلاءات. أما الطريقة العلاجية الرابعة والأخيرة التى عرفها المجتمع المصرى، فقد تمثلت إبان العصر المسيحى فى التماس المؤمنين الشفاء من خلال القديسين الصالحين والشهداء الأبرار، بصورة إعجازية، وفقاً لما يعرف اصطلاحاً بـ «العلاج المقدس» .

هذا وقد اتبع الباحث فى معالجته لموضوع الدراسة المنهج السردى التحليلى المعتمد على عرض النصوص الوثائقية والأدبية وتحليلها بغية الخروج بأفضل نتائج ممكنة، مستفيداً قدر الإمكان من الدراسات الحديثة التى تطرقت إلى بعض جوانب الموضوع محل الدراسة، وعلى رأسها دراسة الباحثة الإنجليزية درايكوت Draycott، التى تحمل عنوان " *طرق التداوى فى مصر الرومانية* *Approaches to healing in Roman Egypt* "، والتى ركزت فيها الباحثة على عرض سبل المداواة التى عرفها المجتمع المصرى منذ نهايات القرن الأول قبل الميلاد حتى القرن الرابع الميلادى، تاركةً للباحث أرضاً صلبة استطاع الوقوف عليها للمضى قدماً فى الحديث عن " الطب وطرق التداوى فى مصر البيزنطية " .

فى النهاية لا يجد الباحث الكلمات التى تعبر عن بالغ شكره وامتنانه لتتلمذه على يد رائد من رواد تاريخ العصور الوسطى فى العالم العربى؛ الأستاذ الدكتور إسحق عبيد، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة عين شمس، الذى شرف الباحث بأن درس على يد سيادته فى السنة التمهيدية للماجستير، وها هو قد أكسب الباحث شرفاً أعظم بقبوله الإشراف على هذه الدراسة، بل وكان له دوراً كبيراً فى توجيه الباحث للعمل فى تاريخ مصر فى العصر البيزنطى من الأساس، بكل ما يتيحه هذا التخصص من تميز وانفراد لكل من يمخر عبابه ويخوض فى غمار بحثه وينال الدرجات العلمية فيه. من ثم يتقدم الباحث للأستاذ الكريم بخالص الشكر وأسمى آيات الامتنان، راجياً الله أن يطيل فى عمر عالمنا الجليل ويهبه دوام الصحة والعافية .

ومن الحق الاعتراف بأن هذه الدراسة ما كان لها أن تكتسب قيمتها العلمية، إلا من خلال المجهود الكبير والمتابعة الدقيقة ومراجعة الأفكار وتوخى الدقة فى كل صغيرة وكبيرة من قبل الدكتور عبد العزيز رمضان، أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد بكلية الآداب جامعة عين

شمس، الذى ما استقي الباحث حرفاً فى العصور الوسطى إلا من نبعه الفياض، فقد سبق للباحث أن درس على يد سيادته جميع مقررات العصور الوسطى فى مرحلة الليسانس، ثم شرف كذلك بأن درس على يد سيادته أغلب مقررات السنة التمهيدية للماجستير، وها هو يستمر فى غمر الباحث بفيض عطفه ورعايته، بإشرافه على هذه الدراسة التى ما انفك يدعم صاحبها بملاحظاته العبقرية وتوجيهاته السديدة، وليس هذا بغريب على عالم بحجم وقامة الدكتور عبد العزيز رمضان الذى يوفر دائماً لكل تلامذته من الباحثين أكثر مما يتخيلون الحصول عليه من مشرفهم العلمى. ولقد أشبع الباحث بنصح وتوجيه غير منقطع، على الرغم من ضيق وقت سيادته والأعباء الكثيرة الملقاة على كاهله، وذلك فضلاً عما وفره للباحث من كتب ومراجع لا حصر لها، استفاد الباحث منها كثيراً فى إعداد هذه الدراسة. إنه من الواضح الجلى أن أستاذنا الدكتور عبد العزيز رمضان ليس علماً من أعلام تاريخ العصور الوسطى فى العالم العربى فحسب، وإنما نحسبه فارساً نبيلاً من فرسان العصور الوسطى، بكل ما تحمله كلمة «فارس» من سمات الكرم والإيثار والخلق الرفيع. من ثم يتوجه الباحث إلى سيادته بجزيل الشكر وخالص التقدير والعرفان .

كذلك يتوجه الباحث بكل الشكر إلى العالمة الجليلة الحائزة على جائزة الدولة التقديرية؛ الأستاذة الدكتورة زبيدة عطا، أستاذ تاريخ العصور الوسطى والعميد الأسبق لكلية الآداب جامعة حلوان، لتفضل سيادتها بالموافقة على مناقشة الباحث، ولما ستقدمه سيادتها من ملاحظات ثرية وثمينة فى موضوع الدراسة بوجه خاص، لاسيما وقد أفاد الباحث كثيراً من كتابات سيادتها الرائعة والغزيرة فى تاريخ مصر البيزنطية بوجه عام .

والشكر موصول أيضاً إلى الأستاذ الدكتور طارق منصور، أستاذ تاريخ العصور الوسطى ووكيل كلية الآداب جامعة عين شمس لشئون البيئة وخدمة المجتمع، لتفضل سيادته بالموافقة على مناقشة الباحث، كما يشكر الباحث لسيادته ما أتاحه له على مدار سنوات العمل فى هذه الدراسة من خبرات علمية عديدة، أبرزها الاحتكاك بمؤتمرين دوليين عن تاريخ مصر فى العصر المسيحى، حصَّل الباحث من خلالهما معلومات عظيمة الفائدة والقيمة. من ثم لا يسع الباحث إلا أن يتوجه إلى سيادته بعميق الشكر والامتنان، راجياً الله أن يجزيه خيراً على عطاءه الدائم والمتواصل وتفانيه غير المنقطع فى مساعدة الجميع .

كما يتوجه الباحث بالشكر إلى جميع أساتذته وزملائه فرداً فرداً بقسمى التاريخ والحضارة الأوروبية، لدعمهم الصادق للباحث طيلة فترة الدراسة. ويخص الباحث بالذكر الأصدقاء المقربين «سامر قنديل»، و«عمر عبد المنعم»، و«إبراهيم الفقى»، و«هيثم قنديل»، فلهم من الباحث كل تقدير وإعزاز. ويتوجه الباحث بشكر خاص إلى الصديق المقرب إلى القلب «على جمعة» المعيد بشعبة التاريخ القديم بالقسم، لتقديمه يد العون للباحث مراراً فى مختلف الأمور العلمية على مدار فترة الدراسة، مقدماً مساعداته المستمرة برحابة صدر وذوق رفيع لا يوجد لهما مثيل على الإطلاق. من ثم فله من الباحث كل الحب والتقدير، راجياً الله أن يوفقه فى مسيرته العلمية .

كذلك يتوجه الباحث بشكر خاص إلى الدكتور ألبير سلطان، الصيدلى الخبير، على ما قدمه للباحث من دعم معرفى وفنى فى النواحى الطبية والتقنية. من ثم له من الباحث خالص الشكر والامتنان. والشكر موصول كذلك لأمناء مكتبات؛ كلية الآداب جامعة عين شمس، المكتبة المركزية بجامعة القاهرة، معهد الآباء الدومنيكان بالقاهرة، دير الآباء الفرنسيسكان، مكتبة الإسكندرية، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، وأخص بالذكر فى الأخير الأستاذ فيليب شيفران بالمكتبة الورقية والأستاذة نيڤين كمال بالأرشيف العلمى. كما يتوجه الباحث بالشكر أيضاً إلى جميع العاملين بالمتحف القبطى بالقاهرة .

أخيراً ؛ أسجل شكرى لأسرتى الصغيرة؛ زوجتى «فاطمة» وابنى «الأمير»، على دعمهما ومساعدتهما لى طوال فترة الدراسة، جزاهما الله عنى كل الخير . . وبعد ، تلك هى محاولتى المتواضعة فإن أصبت فمن الله، وإن كانت الأخرى فمن نفسى، وحسبى محاولة الاجتهاد .

الفصل الأول

التعليم الطبى

- المدخل
- طالب الطب
- البرنامج الدراسى
- أستاذ الطب
- المدرسة الطبية
- الخلاصة

المدخل

هل كان يوجد تعليم طبي فى مصر البيزنطية؟

فيما يتعلق بموضوع التعليم الطبى فى مصر البيزنطية (٢٨٤-٦٤٢م)، أو حتى فى مصر الرومانية (٣٠ق.م-٢٨٤م)، فإنه ينبغى علينا أن نوضح فى البداية أن هذا الموضوع لم ينل من اهتمام الباحثين المحدثين المتخصصين فى تاريخ الطب ما ناله الموضوع ذاته فى العصر السابق على العصرين المذكورين، ونعنى بحديثنا العصر الهللينستى (٣٣٢-٣٠ق.م)، ولعل السبب وراء ذلك يكمن فى ثراء الفترة الهللينستية بالوثائق المتصلة بالموضوع عن أى فترة تاريخية أخرى تلتها، وذلك رغم الشواهد المتعددة التى تؤكد استمرار الدور والمكانة العلمية لمعقل التعليم الطبى فى مصر، ونعنى بحديثنا مدينة الإسكندرية، وذلك على مدار الفترة الرومانية[١]، ومن بعدها البيزنطية حتى إلى ما بعد الفتح العربى لمصر فى القرن السابع الميلادى[٢]، وهو ما سنؤكده فى هذا الفصل من الدراسة .

ولعل من الواجب بدايةً الإشارة إلى أن الدراسات القليلة العربية أو الأجنبية التى تعرضت لموضوع التعليم الطبى فى مصر البيزنطية، قد اتجه أغلبها إلى الترويج لفكرة مفادها أن التعليم الطبى، بل والطب المبنى على أسس علمية ومنهجية بصفة عامة، كلاهما بدأ فى التراجع فى مصر منذ نهايات العصر الرومانى، إلى الحد الذى دفع جون مارلو أن يصدر حكماً عنيفاً ويصرح بأنه بعد وفاة «جالينوس Galen» (١٢٩-٢١٠م)[٣] عادت ممارسة الطب إلى أصولها

---

(١) Draycott, J.L., *Approaches to healing in Roman Egypt*, Ph.D. dissertation, university of Nottingham, 2011, p.57 .

(٢) Browning, R., " Education in the Roman Empire ", in : *The Cambridge Ancient History*, vol.14 (Late Antiquity : Empire and Successors, A.D.425-600), ed.A.Cameron & B.Ward-Perkins & M.Whitby, Cambridge University Press, 2008, pp.855-83, esp.877.

(٣) جالينوس Galen : هو الطبيب والفيلسوف والعالم الشهير الذى سيطر بنبوغه على تفكير أجيال متتابعة من الأطباء بشكل لم يشهد له التاريخ مثيلاً. حظى من العرب بلقب (الفاضل جالينوس) ، ومن الغربيين بلقب (الأشهر Clarissimus). وُلد جالينوس فى برجاموس Pergamum بآسيا الصغرى ، وكان والده نيكون Nikon من المتبحرين فى الثقافة ، فعنى بتعليم ابنه على أكمل وجه ، ولقد ورث جالينوس عن أبيه شغفه بالعلم ، وإن أخذ عن أمه حدة الطابع وسرعة الانفعال. عكف فى برجاموس على دراسة الطب والفلسفة ، ثم رحل إلى أزمير ، ومنها إلى الإسكندرية لاستكمال=

الأولى التى تتسم بالغيبية والسحرية والبدائية واتصالها الشديد بالدين و إلى ماهو أشد تدميراً للتفكير العلمى فى مصر والهند وغيرهما[١] .

وعلى الدرب ذاته سار بول غليونجى الذى يخبرنا أن الطب قد بُلى بعد جالينوس بتدهور سريع ولم يسجل أى تقدم علمى بالمرة إلى أن نشط العرب فيه. وقد حدد غليونجى عدداً من الأسباب التى قادت علم الطب بعد جالينوس إلى طريق مغلقة؛ أولها : أن الحضارة الهللينية أخذت فى الإنحلال بسرعة بعد عصره، وثانيها : أن فلسفته راقت الكنيسة فى العصر المسيحى، فلم يجرؤ أحد على مجادلته خوفاً من الإتهام بالجهل أو الهرطقة، وثالثها : الظاهرة المعهودة،

=معارفه الطبية ، بعدها عاد إلى برجاموس ليعمل لفترة كطبيب للمصارعين ، ثم سرعان ما انتقل إلى روما ، بعد أن سبقه صيته إلى هناك ، فالتف حوله مريدوه ومحبوه من الفلاسفة والأعيان ، حتى توطدت علاقته بالإمبراطور ماركوس أوريلليوس Marcus Aurelius (١٦١-١٨٠م) ، وأتاحت له تلك الاتصالات حرية فى الكلام وذلاقه لسان لم يُعهد مثلها فى الأوساط العلمية من قبل. ولقد وضع جالينوس أربعمائة مؤلفاً وصل إلينا منها ثلاثة وثمانون ، عدا تسعة عشر من المؤلفات المشكوك فى نسبتها إليه ، كما كتب خمسة عشر تعليقاً على مؤلفات أبقراط Hippocrates (٤٦٠-٣٧٧ق.م). ولقد اختلفت الآراء فى تحديد تاريخ ميلاد ووفاة جالينوس بدقه ، لكنها أجمعت فى الوقت نفسه على أن حياته تقع فى الفترة من نهايات العقد الثانى من القرن الثانى الميلادى إلى نهايات العقد الأول من القرن الثالث الميلادى ، ويأخذ الباحث بالرأى القائل بأن ميلاده كان فى عام ١٢٩م ، ووفاته كانت فى عام ٢١٠م. للمزيد عن حياة جالينوس ونظرياته ومصنفاته الطبية وإنجازاته العلمية ؛ انظر : Kelly, k., *The History Of Medicine : Early Civilizations : Prehistoric Times To 500 C.E.*, New York, 2009, pp.121-37 ; Magner, L.N., *A History Of Medicine*, 2nd ed., London-New York, 2005, pp.121-33 ; Guthrie, D., *A History Of Medicine*, London, 1945, pp.74-8 .

؛ انظر أيضاً : بول غليونجى ، قطوف من تاريخ الطب ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص٢١٩-٢٢٨ ؛ الأب ج. شحاتة قنواتى ، تاريخ الصيدلة و العقاقير فى العهد القديم و العصر الوسيط ، ط٢ ، أوراق شرقية ، بيروت ، ١٩٩٦ ، ص١٢١-٣. وللمزيد عن تبجيل الأرستقراطية الرومانية لجالينوس وتغير نظرتهم للطب وممارسيه من التحقير والازدراء إلى الاحترام والتوقير كأهل الشرق اليونانى ، وذلك بعد حضور جالينوس إلى روما والتفافهم حوله ؛ انظر : Lendon, J.E., *Empire Of Honour (the art of government in the Roman world)*, New York, 1997, p.43 . وعن عصر الإمبراطور ماركوس أوريليوس ؛ انظر : Scarre, C., *Chronicle of the Roman Emperors : The Reign-By-Reign record of the rulers of the Imperial Rome*, London, 1995, pp.112-18 . ويشايع الباحث فى مسألة تاريخ ميلاد جالينوس ووفاته رأى جون سكاربورو John Scarboroug ؛ انظر Scarborough, J., " Early Byzantine Pharmacology ", *Dumbarton Oaks Papers* 38 (1984), : pp.213-32, esp.215-21 .

[١] جون مارلو ، العصر الذهبى للإسكندرية ، ترجمة : نسيم مجلى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠١٢ ، ص٧٩ .

وهى أن ظهور أحد العباقرة تتبعه دائماً فترة ركود ، ورابعها : أن الأديان الجديدة (المسيحية بمذاهبها والإسلام) قد حرمت التشريح مما ضرب التعليم الطبى فى مقتل[١]. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الأسباب التى عددها غليونجى ربما تعبر نوعاً ما عن تراجع مستوى البحث العلمى المبنى على التطبيق فى مجال العلوم الطبية، ولكنها لا تمثل أبداً دليلاً على انعدام التعليم الطبى بعد جالينوس .

أيضاً نجد تشارلز ورث يذكر أنه على الرغم من المكانة العالية التى بلغها علماء الإسكندرية فى الإمبراطورية الرومانية، فإن تاريخ الإمبراطورية بوجه عام ملىء بسيطرة الخرافات والخزعبلات على عقول سكان الإمبراطورية بسبب جهل غالبيتهم، الأمر الذى دفعهم إلى تصديق أى دجال أو مدعى ببلاهة شديدة، وفى مجال الطب كثر انتشار الدجالين والجراحين المتجولين فى الإمبراطورية الرومانية، وهم الذين كانوا يوهمون المريض بأنهم سيجرون له جراحة لاستخراج قطعة حجر منه، ودائماً ما كانوا يجدون مثل هذه القطعة بدون أى معرفة طبية أو دراسة، لأنهم كانوا يحتاطون للأمر بإحضار قطعة من الحجر معهم ويخفونها فى راحاتهم أو أكمامهم. وفى القرى كانت الساحرات والحكيمات تعتمدن على تجارة الأحجبة والرقيات. ومع مجىء القرن الثالث الميلادى ازدادت المعتقدات الخرافية والسذاجة والبعد عن العلم فى الإمبراطورية بفعل ما جرى فى هذا القرن من حروب وغزوات وأزمات إقتصادية. مع كل ذلك لا يلبث ورث فى ختام حديثه فى هذا السياق أن يعطينا بارقة أمل عندما يقول أنه كان هناك " *منارات للعلم مثل الإسكندرية ظلت قائمة حتى فى أشد العصور حلكة، فحفظت تلك الشعلة المقدسة التى كان للعرب أن يحملوها ويتقدموا بها ركب الحضارة من جديد* "[٢] .

وفى السياق نفسه يذهب بومان Bowman إلى أنه على الرغم مما نقله الإغريق إلى الإسكندرية من معارفهم الطبية وعلومهم، وكذلك ما حققه الرومان من بعدهم من بعض الإضافات المعرفية، وإن كانت قد اقتصرت فى مجال الطب على تطوير الخدمات الطبية المقدمة لأفراد الجيش، فضلاً عن نقلة جديدة فى ميدان الطب تسببت فيها المسيحية وهى انشاء

---

[١] بول غليونجى ، قطوف من تاريخ الطب ، ص٢٢٩ .

[٢] أ.ب. تشارلز ورث ، الإمبراطورية الرومانية ، ترجمة : رمزى عبده جرجس ، مراجعة : محمد صقر خفاجة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٩ ، ص١١٧-١٩ .

المستشفيات من باب العمل الخيرى وتقديم المساعدة لذوى الحاجه تقرباً لله، إلا أنه بالرغم من كل ذلك فإن أدوية الدجالين والوصفات الشعبية ظلت هى السائدة فى مصر على مدار تاريخها ، ويدلل بومان على ما يذهب إليه بذلك الكم الهائل من تلك الوصفات التى عُثر عليها مسطرة على أوراق البردى وفى كتيبات طبية عديدة[١] .

ولعل من المحبط أن نقرأ ما يذكره أيمن توفيق الذى يخبرنا أنه بعد وفاة جالينوس توقف مسار الطب وتجمد، وانتهى عصر الطب المبنى على الملاحظات الإكلينيكية والتشخيص، خاصة بعد انتشار المسيحية واحتكار قساوستها للطب وانغلاق المعارف الطبية داخل الأديرة لمدة ٨٠٠ سنة (٤٠٠م-١٢٠٠م)، واقتصار الطب طيلة هذه الفترة على مداواة الأعراض، لأن العلوم اندثرت وأفسحت المجال للخرافات والخزعبلات التى سادت وانتشرت. وعندما أصبحت المدرسة الطبية مسيحية وسيطرت عليها الكنيسة، أصيب التعليم الطبى بصدمة عنيفة و فقد حريته، وسارت الإسكندرية ومدرستها الطبية فى مسار الذبول و الإضمحلال[٢] .

وربما الأكثر بعثاً على الإحباط لمن يود أن يسطر فصلاً عن التعليم الطبى فى مصر البيزنطية هو ما يخبرنا به سمير الجمال من أن النهضة العلمية و الفكرية فى مصر ظلت واسعة النطاق ولا نظير لها فى أى بلد من بلدان العالم حتى نصل إلى نهايات القرن الرابع الميلادى، إذ أنه بفعل الاضطرابات الدينية فى مصر فى نهايات ذلك القرن، ضعف التعليم الطبى واستمر الحال على هذا حتى دخل العرب أرض مصر فاتحين[٣] .

وتتخذ زبيدة عطا النهج ذاته عندما تصرح أنه بعد أن سادت المسيحية وأصبحت ديانة الدولة الرسمية، بدأت تتخذ موقفاً من الثقافة التى ربطتها بالوثنية، فكان لابد من تدمير آليات هذه الثقافة بتدمير مكتباتها وتشتيت أساتذتها، ومع ذلك ظل هناك ضوء خافت إلى نهايات القرن الخامس، إذ اختفى بعدها الأساتذه الوثنيون وحل محلهم مسيحيون، وظلت الثقافة اليونانية تُدرس

---

(١) Bowman, A.K., *Egypt after the Pharaohs (332BC-AD642) from Alexander to the Arab conquest*, Berkeley-Los Angeles, 1996, p.151 .

(٢) أيمن توفيق ، تاريخ الجراحة منذ أقدم العصور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٨ ، ص١١٧- ١٨ .

(٣) سمير يحيى الجمال ، تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، ج٢ (العصر اليونانى - الرومانى) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٩ ، ص٥٢٦-٧ .